**المحاضرة الثالثة: فلسفة التربية عند جان جاك روسو**

يعتبر كتاب "إميل" أهم مرجع عملي في التربية، وهو أكثر من ذلك مذهب تربوي عام وبحث أضاف لعم النفس التربوي والأخلاق التربوية إضافات كثيرة، وتحليل عميق للطبيعة البشرية.

نشأة روسو: وصفت حياة روسو بالعجب والغرابة، فقد كان رجلا كبيرا تعيسا ارتكب في شبابه خطايا كبيرة، لكنه في فترات أخرى كان حكيما وبطلا خلقيا متمسكا بالشجاعة والفضائل وكان أيضا مغامرا، مارس عديد المهن، فكان صانعا وخادما ومربيا، وعاش أياما قاسى فيها الجوع، وقد كان ذكيا ويشعر بالظلم ومحب شديد للطبيعة، مؤمنا بالعناية الإلهية، لا يحب الكذب ويشعر بسمو العدالة وبغض الظلم، وفي غمرة كل ذلك كان يقرأ للشعراء والمؤرخين والفلاسفة ويدرس الرياضيات والفلك وكل هذه الأمور وغيرها كانت سببا في عبقريته التربوية.[[1]](#footnote-1)

**مبادئ إميل العامة:**

* البراءة التامة للطفل: يقول في كتابه "كل ما خرج من بين يدي خالق الأشياء حسن خيّر، وكل شيء يفسد بين يدي الناس". لقد واجه روسو أولئك الذين يرون في الطفل كائنا فاسدا منحطا قبل أن يولد. إنه يعتقد أنه ليس في الطبيعة البشرية بذرة شر، والمجتمع هو مبعث الشر والفساد ومن ثمة علينا حماية الطفل منه، فروسو يضع إميل في مدرسة الطبيعة ويربيه كالمتوحش تقريبا. 378

من جانب آخر تعد تربية إميل تربية سلبية حتى السنة 12، فروسو يوكل الأمر كلية للطبيعة، فندع الطفل بشأنه حرا ونحميه من صدمة الآراء ونسد عنه كل ما في المجتمع، فتنمو ملكاته نموا حرا.

* التمييز بين الأعمار: يقول: "إن لكل عمر ولكل حال في الحياة كمالها الملائم لها ونوعا من النضج خاصا بها"، كما يقول: "نحن نجهل الطفولة الجهل كله، وكلما مشينا في الأفكار الخاطئة التي نملكها عنها ازداد ضلالها، إنك ترى أكثرنا حكمة يتحلقون بما يهم البالغ معرفته ولا ينظرون فيما ينبغي أن يتعلم الأطفال" ويفهم من هذا أن التربية تكون تدريجية تراعي تطور القوى النفسية ونموها، بل أكثر من ذلك فهو يجزؤها ويقيم الحواجز بينها حسب الأعمار، كما يميز في النفس طبقات مختلفة. 379
* حياة الطفل في عقدها الأول (حتى سن 12): يتطرق فيه روسو لتربية البدن وتدريب الحواس وحذف كل ما له علاقة بالثقافة الفكرية والخلقية، حيث يقول: "ولن يجيد إميل حتى سن الثانية عشر إلا الركض والقفز والتمييز بين الأبعاد والمسافات". 280
* الطبيعة تتولى الأمر: إن الطبيعة تزيد من الطفل أن يعمل في حرية ولا يعيق نشاط أعضائه الوليدة أي عائق، غير أننا نفعل خلاف هذا الأمر فنحسبه في القماط، ونشوهه به، وهي القيود الأولى له، ومن بعدها قيود كثيرة، فروسو يرفض هذه العادة ولا يتوانى في نقدها متهكما يقول: "يبدو لي أننا نخاف من أن تظهر على الطفل أية بادرة من بوادر الحياة"، كما يقول: "إن الإنسان يولد ويحيا ويموت وهو في العبودية، فعند ولادته نخيطه في قماط، وعند موته نرزه في نعش، وما دام محتفظا بهيئة الإنسان نكبله بظواهرنا الاجتماعية"
* الرضاع: ثار روسو في ظاهرة كانت شائعة وهي تسليم الأطفال لمرضعات مرتزقات، ويهيب بالأمهات أن تقمن بواجب الأمومة مبينا أنه إذا لم تكن هناك أم لم يكن هناك طفل، وإذا لم تكون هناك أم لم تكن هناك أسرة، يقول: "إذا أردتم أن تعيدوا كل إنسان لواجباته الأولى عليكم بالبدء بالأمهات وستعجبون لما ستحدثونه من تغيرات" لقد تمسك بهذا الأمر لأسباب خلقية مؤكدا على شرف الأسرة وسمعتها وفضائلها. 381
* التعود على الخشونة: يريد روسو من "إميل" أن يتعود على الخشونة ويروض على الحرمان ومعاناة الألم منذ طفولته. إن روسو ليس مثل جون لدك يقدم أحذية رقيقة لتلميذه، بل يزيد على ذلك فيحذف الأحذية أصلا، ويريد من إميل أن يعتاد المشي في الظلام ويستغني عن الشمع وهو بذلك يلغي من حياته كل ما ابتكرته المدنية كالدواء والخمر.
* التربية السلبية: إن تطبيق التربية السلبية يكون مقبولا في العقد الأول من العمر وقليل الخطر ولهذا فإن مربي "إميل" شاهد لكنه عاطل لا ينظر ولا يتكلم أمام عمل الطبيعة (382). إن وجود المربي معه لا يعني إلا أنه يضعه في بداية الطرق الذي يؤدي به إلى الاكتشاف الواجب فعله في قلب الطبيعة الواسع، ويهيئ له المشاهد التي عدت لتكون مكان الدروس العادية، كمشهد البحار الذي يأخذ إميل عنه بعض مبادئ الفيزياء والأخلاق، وأيضا مثل الحوار الذي دار بينه وبين البستاني "روبير Robert" الذي يكشف له عن فكرة الملك. وباختصار فإن المربي عند ورسو ليس معلما بل مسيرا للآلة، أما المعلم الحقيقي والمربي في ذات الوقت فهو الطبيعة، بعد أن تحضر لتكون صالحة لخدمة ما يراد الوصول إليه من غايات. إن روسو لا يقبل إلا تعليم الأشياء.

"لا تقدم لتلميذك أي نوع من الدروس الكلامية، فعليه أن لا يتلقى مثل هذه الدروس إلا من التجربة"

"ليست أهم قاعدة في التربية وأنفعها أن نربح الوقت بل أن نضيعه"

كما أن المربي يساعد الطفل ببعض الكلمات على تأويل دروس الطبيعة:

"اجعل المسائل في متناوله، ودع حلها له، ولا تجعله يعلم شيئا عن طريقك، اجعله يفهم كل شيء بنفسه"

"سواء فيما يتصل بأمور الجسد أو بأمور النفس ينبغي أن ندع الطفل وشأنه"

"ليركض وليتخبط و\*\*\*\* مئة مرة في اليوم، فلا عليك، إذ يتعلم مبكرا كيف ينهض من كبوته وإن هناءة الحرية لتفدي عنده كثيرا من الجراح"

إن روسو يخاف بشدة بالتشدق في التعليم، وهو ما جعله ينفي التعلم عن طريق العادة فقال: "خير عادة أن لا يكتسب الطفل أي عادة" 383

* سعادة الطفل حق: يدعو روسو لاحترام الطفولة عند الطفل وإعطاء الاعتبار لميوله ورغباته وهو ينادي بسعادته بصورة فيها الكثير من البلاغة: "أحبوا الطفولة، يسروا لها ألعابها ومسراتها وفطرتها المحبوبة، من منكم لم يأسف أحيانا على تلك السن التي لا تفارق الابتسامة فيها الشفتين، والتي تكون فيها النفس في سلم وهدوء دائم؟ فلم تريدون أن تحرموا هؤلاء الصغار الأبرياء من متعة، فترة تكاد من قصرها تفوتهم، ومن ذخر ثمين لن يسيئوا استعماله مهما فعلوا؟ ولم تريدون أن تملأوا بالمرارة والآلام هذه السنوات الأولى الخاطفة التي لا تعود إليهم أبدا، كما لا تعود إليكم؟ أيها الآباء هل تعلمون الأجل الذي ينتظر فيه الموت أبناءكم؟ فلا تتهيأوا للندامة إذ تحرمونهم من الهنيهات القليلة التي منحتهم إياها الطبيعة، متعوهم بلذة الوجود منذ أن يصبحوا قادرين على الاستمتاع بها، حتى إذا دعتهم المنية في ساعة من الساعات لم يموتوا قبل أن يتذوقوا الحياة ويقضوا منها وطرا" 384
* إبعاد التمرينات الفكرية واللغات: تعتبر التمارين الفكرية المعتادة مستبعدة، فالتاريخ مثلا مستبعد لأن "إميل" ليس بمقدوره فهم العلاقات بين الحوادث مستخدما مثالا لما جرى لذلك الطفل الذي حكيت له حكاية الإسكندر وطبيبه قائلا: "لقد كان هذا الطفل يعجب أكثر من أي إنسان آخر بشجاعة الإسكندر، ولكن هل تعلمون أين كان يرى موطن هذه الشجاعة؟ كان يراها في تجرعه شرابا سيئ الطعم" (384) ولهذا فالطفل في نظره ليس له ذهنا متفتحا يمكنه فهم التاريخ فعلينا أن لا نعلمه إياه.

لقد أنكر روسو دراسة اللغات، وبالتالي لا يعلم "إميل" أي لغة حتى سن الثانية عشر، فهو لعجزه عن الفهم والحكم بسبب سنه لا يقدر على المقارنة بين لغته الأم وسائل اللغات، أما بعد الثانية عشر حتى الخامسة عشر فيستبعد اللغات القديمة لأسباب أخرى، وزيادة على كل هذا يحرم الأدب على "إميل".

* تربية الحواس: اهتم روسو كثيرا بتدريب وتنمية حواس تلميذه. فالحواس هي أولى الملكات التي تنمو وتتكون لدينا، ويعتبر من الواجب البدء بتثقيفها لأنها في الواقع ننساها ونهملها ولا يعتقد روسو أنها مكونة من الطبيعة بالفطرة، وإنما يتم البحث عن الوسائل (385) التي تعمل على تكوينها وتبلغ بها كمالها عن طريق التربية. يقول: "إن تدريب الحواس يعني أن نتعلم أن نحس، إن صح التعبير ذلك أننا لا نعرف أن نلمس أو نرى أو نسمع إلا على غرار ما تعلمنا"
* حياة الطفل بين 12 و 15 سنة: خصص روسو هذه الفترة للنشأة العقلية الحقيقية، فهذا الحوان القوي، أو هذا السنجاب الذي يدعى "إيميل" بعد أن أمضى في التربية السلبية 12 سنة عليه أن يصبح في 3 سنوات عقلا نشطا متمتعا بذكاء لافت حيث يبدو من خلال هذا أن روسو لا يمنح للثقافة إلا زمنا ضئيلا، كما أن "إميل" لم يتم إعداده للدراسات السريعة التي سيتم فرضها عليه، فهو لم يتعود على التفكير في سنوات الأولى، وعاش حياة جسدية، وبالتالي سيجابه عناء كبيرا للقضاء على تردي ملكاته العقلية وذبولها خلال بضعة أشهر.

لقد وضع روسو مجموعة من الشروط للتربية الفكرية "لإميل":

1. الاختيار بين مواد الدراسة: إن المبدأ الذي يوجه روسو في اختياره لمواد الدراسة لإميل هو مبدأ النفع 386، حيث يقول: "إن ثمة اختيار في الأشياء الواجب تعليمها، وفي الوقت الملائم لتعلمها، فالمعلومات التي في متناولنا بعضها خاطئ، وبعضها الآخر لا جدوى فيه، يغذي الكبرياء والعجب، ولا يجدر الإنسان الرشيد وبالطفل الذي نريد أن نصيره كذلك، أن نبحث في غير المعارف القليلة التي تساهم فعلا في رفاهيتنا، وليس الأمر أمر معرفة ما هو، ولكنه معرفة ما هو نافع."
2. دراسات إيميل: "يوصي روسو "إميل" بالعلوم الطبيعية لاسيما الفلك، ثم الجغرافيا التي لا تدرس عن طريق الخرائط بل عن طريق الأسفار، وروسو هنا كعادته يفضل ما هو خير وإن كان مستحيلا وعلى ما هو أدنى وإن كان وحده ممكن التطبيق، ثم إنه لا يريد أن يكون تلميذه كتلميذ داربليه"، أما فيما يخص اللغات القديمة والنحو وكذلك التاريخ فتستبعد من تعليم "إميل" لأن التاريخ مثلا يغمسه في حصة الحياة الاجتماعية. كما يجب إبعاد الكتب عنه حتى سن 15 يقول في هذا الشأن: "إنني أمقت الكتب فهي لا تعلم المرء إلا التحدث عما لا يعلم" ليس هناك إلا كتابا واحدا نال رضى روسو هو كتاب "روبنسون كروزو" وهو رسالة في التربية الطبيعية تشبه أفكاره.

* منهجه: يوصي روسو بمنهج عام يعوض فيه أخطاء خطته الدراسية حيث يقول: "لا تقدموا للطفل أبدا خطبا لا يستطيع سماعها، ودعوا الوصف والبلاغة والمجاز واكتفوا بأن تعرضوا عليه الأشياء في حينها...لنحول إحساسنا إلى أفكار، ولكن لنتجنب القفز دفعة واحدة من الأشياء المحسوسة إلى الأشياء الفكرية ولنسر دوما في \*\*\*\*\* من فكرة محسوسة إلى فكرة محسوسة وبوجه عام، لنحاول أن لا نحل أبدا رمز الشيء مكانه عندما يغدو من المستحيل علينا أن نبديه" 388
* دوافع العمل والسلوك:
* ما هو الباحث التربوي الذي يتوجه به إلى الطفل؟ إن إميل حتى 12 من عمره يوجه عن حسب مبدأ الضرورة بحيث تتحكم فيه الأشياء وليس الأشخاص، ويقاد عن طريق الممكن والمستحيل، يعامل لقوة من قوى الطبيعة التي تقاوم بقوة أخرى، ولا يعما بوصفه كائن لديه إحساس وعقل. ولكن بعد سن 12 سنة يبدأ العدول عن هذا المبدأ، لأن إميل يبدأ باكتساب الأحكام والقدرة على التمييز، وهنا يجب أن يكون مبدأ المنفعة هو الدافع الفكري الموجه لسلوكه، وعندما يبلغ سن 15 يمكن الاهتمام بما في قلبه وعاطفته ومما نطلبه منه من أفعال يجب إظهارها له بصورة أفعال شريفة وطيبة ونبيلة، لا بصورة أفعال ضرورية أو نافعة "أخطأ روسو هنا عندما جزأ حياة الإنسان حتى سن 20 إلى 4 أجزاء قاطعة لا تواصل بينها، لكل واحدة منها قاعدتها السلوكية، بينما من الطبيعي استخدام كل البواحث والدوافع التي تؤثر في الإدارة في كل سن، وفكرة الواجب والمنفعة والعاطفة هي أمور تستحق الاهتمام في كل الأعمال بنسب متفاوتة"
* تعلم المهنة في سن 15: \*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*
* إميل في سن 15: يقول: "إميل يملك القليل من المعاف، ولكن هذا القليل يملكه حقا، فلا يعرف شيئا معرفة وسطا، وإلى جانب هذا العدد القليل من الأشياء التي يعرفها ويعرفها جيدا هناك أشياء كثيرة يجهلها وفي وسعه أن يعرفها يوما، وأشياء يعرفها غيره من الناس ولا يعرفها هو طوال حياته، وأشياء أخرى لا عد لها لن يعرفها أي إنسان أبدا. فهو ذو فكر عالمي شامل لا في علومه ولكن في قدرته على اكتساب العلوم. وهو روح متفتحة ذكية مهيأة لكل شيء، إن لم تكن مثقفة فهي قابلة لأن تثقف" وهذه صفات حسنة لكن إميل له عيوبه الكثيرة. منها تلك الموجودة عند الجميع، فهو لا ينظر إلى الأشياء إلا من زاوية المنفعة فهو لا يتردد مثلا في بيع المجمع العلمي بفرن شطائر. ص390
* تكون عواطف المحبة: نشأ إميل في عزلة عن الرفاق والأسرة والأصدقاء، فمحكوم عليه أن يكون أنانيا، وكل محاولات روسو لغمر قلبه بالمحبة والعاطفة باءت بالفشل، فلا سبيل إلى ذلك بالنسبة للطفل إلا عندما يكون صغيرا في بيئة أسرية واجتماعية قادرة على ذلك. أما روسو فترك إميل خاويا من كل ذلك طيلة 15 سنة، ولا توجد وسلة لذلك تثير العواطف الرقيقة في نفس طفل تربى من غير أم. بهذا يعتبر روسو مخطئا في اعتقاده أن بمقدورنا تعليم طفل عواطف المحبة كتعليمه القراءة والكتابة من خلال دروس كأي دروس أخرى.
* التربية الخلقية: يعتقد روسو أن القيم الخلقية من خير وشر، لها جذور في عاطفة الشفقة والإحسان والمحبة، فالطفل يمكنه تعلم الأخلاق العقلية عن طريق الانفعالات القلبية الرقيقة. هذا الأمر مشروط بأمر واحد هو عدم التوقف في بداية الطريق أو منتصفها وأن تكون أوامر العقل تشبع الوحي الغامض، لكن روسو يرفض هذا مصرا على أن الفضيلة يصنعها القلب وحده وهي تخصه ولهذا فأخلاقه عاطفية خالصة أو محضة. ص 391.
* التربية الدينية: يرى روسو أن يملك بطبعه ميلا حتميا إلى العبادة بسبب ما يتمتع به من خيال حساس، فهو لا يستطيع أن يكون عن الله إلا فكرة بها أوهام، وإذا انغمس فكل الطفل في الأوهام لم يتمكن التخلص منها. لذلك وجب الانتظار لصالح الدين نفسه حتى ينضج عقل الطفل ويصبح فكرا قويا يدرك فكرة الله إدراكا حقيقيا لا تشوبه شائبة ولا تغطيه غشاوة مادية أو قناع حسي. لكن إذا استغنى الطفل عن فكرة الله حتى يبلغ سن 18 ألا يمكن أن يستغني عنها بعد هذه السن؟ فإذا حصلت فكرة الله في سن 18 أليست فكرة متأخرة واهنة الجذور؟ ألا يتسرب الشك أكثر إلى عقل الطفل؟ أليس الطفل فضوليا جدا في معرفة فكرة الله في سنواته الأولى؟
* صوفيا وتربية النساء: يرمي روسو إميل وصديقته في مغامرات خطيرة طريفة وبنية ينكر كرامة المرأة الخاصة لأن تلك المرأة الموصوفة بالكمال التي تسمى صوفيا لا تربى إلا لتمتع إميل بالسعادة وتربيتها مرتبطة بمصيرها كزوجة.

1. - مرجع سبق ذكره، ص 377. [↑](#footnote-ref-1)